الفصل الثانى
فى تاريخ الغزو التربوى والتعليمى والثقافى ووسائله وغاياته

ينتقل بنا المؤلف بعد أن صحبنا فى مدخله إلى صميم البحث فنجده قد خص الباب بمعالجة قضية« الغزو التربوى والتعليمى » على المستوى التاريخى فيما يزيد عن ثمانين صفحة، قص المؤلف خلالها قصة ذلك الغزو التربوى والتعليمى والثقافى فى بلاد الإسلام المترامية الأطراف، وناقش عَبْرها أهداف ذلك الغزو ووسائله وغاياته وما انتهى إليه الأمر فى الواقع التربوى والتعليمى والثقافى فى البلاد العربية والإسلامية وتم ذلك فى فصلين:

الفصل الأول: قصره المؤلف للحديث عن مدارس الإرساليات الأوروبية والأمريكية.

الفصل الثانى: عالج فيه الغزو التربوى والثقافى فى التعليم الوطنى.

(مدارس الارساليات): كيف بدأ الغزو التربوى والتعليمى والثقافى فى العالم الإسلامى؟

وما أهداف ذلك الغزو؟ ما المحصلة والنتائج الواقعية لذلك الغزو؟

كل تلك التساؤلات وغيرها نجد الإجابة عليها فى هذا الفصل من الكتاب.

س - كيف بدأ الغزو التربوى والثقافى للعالم الإسلامى؟

يجيب المؤلف «بدأ الغزو التربوى والثقافى والتعليمى للعالم الإسلامى فى نقطة واحدة هى «مدارس الإرساليات، وامتد منها إلى الجامعة، ثم امتد من الجامعة إلى الصحافة ومجالات الثقافة المختلفة» (١).

---

(١) التربية وبناء الأجيال ص: ٢١.

س - ما الخطة التى أتبعتها مدارس الإرساليات فى تحقيق أهدافها؟ وما الغاية؟

« ... تقدمت الإرساليات على خطين: خط الإرساليات البروتستانتية الأمريكية وخط الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية، ومن ثم وضعت فلسفة تربوية غربية تتراوح بين مذهبين مختلفين هما فى الأصل يستمدان أساسهما من المسيحية الغربية ولكنهما يختلفان فى الطريقة ويصلان فى الغاية إلى هدف واحد هو استيعاب الشباب العربى والمسلم واحتواؤه وتعليمه على نحو يجعله يداً من أيدى القوة الغربية وعينا من عيونها» (١).

ويعرض المؤلف لكتاب الأستاذ جرجس سلامة عن تاريخ «التعليم الأجنبى فى مصر» حيث ينقل عنه حديثا مطولا عن قصة التعليم الأجنبى فى مصر وأهدافه. يقول الأستاذ سلامة «إن الباحث فى تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر منذ بدايته فى القرن السابع عشر يجد أن هذا النوع بدأ لأغراض دينية بحتة، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها فى الشرق وفى مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكية فى مصر لرئاستها، وقد قوبلت هذه الإرساليات للقيام بأعمال اجتماعية وصحية لتجتذب الناس وتستميلهم إليها فأنشأت المستشفيات والمصحات وقامت بالخدمة هرمل والسبع بنات ... وكانت الظروف العامة تساعد على تمكين التعليم الأجنبى فى مصر ورسوخ أقدامه إذ أنه وفد إلى مصر فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية ضعيفة بوجه عام، وكانت انجلترا وفرنسا تتمتعان بالامتيازات الأجنبية وعقدت أمريكا هى الأخرى معاهدة التجارة والملاحة مع الدولة العثمانية فى بداية القرن التاسع عشر، وأنشأت لها قنصلية فى مصر» (٢).

٢ - الأضرار الناتجة عن التعليم بالمدارس الأجنبية

- ينتقل بنا المؤلف ليحدثنا بعد ذلك عن الأضرار الناتجة عن التعليم

---

(١) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩، ٣٠.

بالمدارس الأجنبية أو مدارس الإرساليات فى الواقع التربوى بين أبناء الشعوب الإسلامية فيقول: «وكانت من أبرز الأخطاء المتصلة بمدارس الإرساليات هى:

أولا: إغفال اللغة العربية وهى لغة البلاد القومية، وكان من الضرورى إتقان لغة أجنبية على حساب اللغة العربية، هذا بالإضافة إلى ما كانت توصم به هذه اللغة من نقص وضعف.

ثانيا: أسهمت هذه المدارس فى تلقين أبنائنا تاريخ أوربا والدول الأجنبية المختلفة وحرمتهم فى نفس الوقت من تاريخهم القومى والعربى والإسلامى.

ثالثا: كانت هذه المدارس تتجاوب مع رغبات وتوجيهات سفارتها ودولها بل إن مجالس ادارة أغلب هذه المدارس كان يرأسها السفراء والقناصل.

رابعا: خلا هذا التعليم من رعاية دين وأخلاق أبناء البلاد، بل كان له الاتجاه العكس المؤدى إلى الشعور بالتحلل، كما أنه خلق نوعا من الطبقة المستعلية على طبقات المسلمين فى المدارس الوطنية.

خامسا: كان له أثره البعيد فى تفكك الأسرة حيث نجد العائلة الواحدة مقسمة بين ثقافات متعددة: أمريكية وفرنسية وانجليزية ووطنية!»[1].

بيد أن الخطر الأكبر الذى أحب أن ألفت الانتباه إليه فيما نحن بصدد معالجة الأخطار المتصلة بمدارس الإرساليات هو ذلك الذى يتصل بالطفولة لا سيما المبكرة، حيث يؤتى بالنشء قبل أن يتكامل نموه وتتلقفه أيدى القائمين على مدارس الإرساليات تشكله وتغرس فيه ما تشاء حيث إنه فى هذه السن الصغيره عجينة طيعة سهل التشكيل والتوجيه، يقول الأستاذ المؤلف:

«... تتركز سياسة الإرساليات «المدارس الأجنبية» فى توجيه العناية إلى النشء الصغير لتشكيله قبل أن يشكله أهله فى إطار الإسلام، وإلى بذل

---

(١) نفس المصدر ص ٣٢، ٣٣.

أقصى الجهد فى إدخال البنات المسلمات فى الأقسام الداخلية حتى ينعزلن عن محيطهن الإسلامى ويشكلن فى إطار الصلاة المسيحية والأدعية ولا يخرجن من المدرسة إلا بعد أن يكن قد انطبعن بطابع الحياة الغربية وروح العقيدة المسيحية، هذه الفتاة هى التى ستكون زوجة مسلمة من بعد وستربى الجيل الجديد »[1].

٣ - الأهداف البعيدة التى يرمى إليها الغرب من وراء التعليم الأجنبى ومدارسه:

ويبدو أن الغاية البعيدة التى يرمى إليها الغرب من وراء إنشاء هذه المدارس الحيلولة دون أن يتنبه أبناء الإسلام من النابهين إلى عظمة هذا الدين وفعاليته وقدرته على العطاء من جهة، ومن جهة أخرى السعى لإعداد طبقة (خاصة) لتولى أمور الحكم والوظائف العليا فى ذات الوقت الذى يتوجهون بولائهم نحو أوربا وأمريكا كل حسب المدرسة التى تخرج فيها المتعلم فرنسية أو ألمانية أو انجليزية أو غيرها وإلى ذلك المعنى أشار زويمر من قبل فى مؤتمر المبشرين سنة ١٩٢٤ إذ قال للمبشرين أن هدفنا ليس إخراج المسلم من الإسلام لإدخاله المسيحية وإنما الهدف « إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله »[2]. يقول زويمر: « لقد قضينا منذ ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية، ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية »، طبقا لذلك جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده الاستعمار المسيحى لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف فى دنياه نهمة إلا الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع فللشهوات وإذا تبوأ أسمى المراكز فى سبيل المال يجود بكل شئ »[3].

- وفى نهاية هذا الفصل عن التعليم الأجنبى يطرح المؤلف سؤالا عن

(١، ٢) نفس المصدر ص ٣٥. (٣) ص: ٤٧، ٤٨ المصدر السابق.

الهدف الحقيقى للإرساليات التعليمية فى العالم الإسلامى وأجاب الأستاذ المؤلف عن ذلك قائلا : « بأن الهدف فى الحقيقة هو السيطرة على الجيل المسلم الجديد منذ مطالعه لإعداده على النحو الذى يكفل له عندما يصبح فى مقام العمل السياسى والاجتماعى والثقافى فى وطنه أن يكون صاحب ولاء فطرى وثقافى قوامه الحب والإعجاب والتقدير للذين علموه ونشأوه »[1].

٤ - الآثار والنتائج المترتبة على الغزو التربوى فى حقل التعليم الوطنى :

- ينتقل بنا السيد المؤلف محللقا فى جوانب البحث ليعرض للغزو التربوى والثقافى والتعليمى إلى أثر ذلك الغزو فى مجال التعليم الوطنى، وهذا ما يخص به الفصل الثانى « التعليم الوطنى » ليصحبنا فى طريق النور والحق مسلطا الضوء على موقف الاستعمار من التعليم الوطنى وقد كشف السيد المؤلف اللثام عن حرص الاستعمار منذ أمد بعيد أن يبسط يده على التعليم الوطنى فى بلاد العروبة والإسلام حتى يضمن أن تكون المحصلة والعطاء النهائى لهذا التعليم وفق النظام التربوى الذى ينفذ من خلاله إلى التلميذ والمتعلم ولكيلا يوجد فى العالم الإسلامى نظاما تعليميا يفرز أجيالا متطلعة للاستقلال الكامل عن حضارة أوربا لا سيما فيما يتصل بالجوانب الأخلاقية والسلوكية والأيدلوجية، مناوئة لسلطان الحضارة المادية المسيطرة على الدنيا منذ عدة قرون وإلى الآن وقد بدأ هذا الاتجاه منذ بدء ظهور التعليم الأجنبى قبل المد الاستعمارى فى القرنين الماضيين وتضاعف خطر هذا حينما بسط الاستعمار سلطانه فى أرض الإسلام وقسم بلاد العروبة والإسلام مارا ببعث القومية ضاربا آخر مظهر للإسلام السياسى « الخلافة » زارعًا للبغضاء والفرقة، باعثا للشعوبية بين أبناء الأمة الواحدة، حرص الاستعمار - إذن - منذ ذلك الحين أن يحكم قبضته على التعليم الوطنى فى البلاد الإسلامية كما ذكر الدكتور زويمر (صمويل) رئيس المبشرين فى العالم العربى

---

(١) ص: ٥٤ المصدر السابق.

فى الثلاثينات حتى قال: «إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام وبذلك أخرجت ناشئه لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأعراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة» (١).

وفى مصر كمثال لذلك نجد أنها فى ظل حكم اللورد كرومر عاشت أقصى درجات التدخل فى شئون تعليمها الوطنى حيث عين دنلوب سكرتيرا عاما لوزارة المعارف عام ١٨٩٧م ثم مستشارا عاما لها عام ١٩٠٦م. يقول الأستاذ المؤلف «ويعد (دنلوب) واضع المخطط الأساسى لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج التعليم فى المدرسة المصرية، وهو أيضا منفذ هذا المخطط والمشرف عليه سنوات طويله حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد عمل دنلوب على محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر واضطهد معلمى القرآن واللغة العربية من الأزهريين ونشر لواء اللغة الانجليزية وأهلها للسيطرة الكاملة على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربية (٢).

ويمضى الأستاذ المؤلف فى تبيان الدور الخطير الذى يلعبه القس المستشار دنلوب مؤسس الاستعمار التربوى والعقلى والتعليمى فى مصر حيث يقول: «ويجمع المؤرخون والباحثون على أن القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوى والعقلى والتعليمى فى مصر.

ولذلك فقد عمد الحزب الوطنى إلى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الإسلامية بإشراف الشيخ محمد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحريرهم من هذه الأنظمة التى تحطم معنوياتهم».

ومن كتاب «وجهة الإسلام» لـ (هاملتون جب) وخمسة من المستشرقين

(١، ٢) ص: ٥٨ «التربية وبناء الأجيال».

عام ١٩٣٠م صور لنا المستشرقون الستة وأولهم «جب» الأهمية القصوى التى يوليها الغرب فى السيطرة على التعليم، وكشف الأستاذ المؤلف عن رؤية المستشرقين فى التعليم واعتبار السيطرة عليه فى بلاد الإسلام ضرورة حيوية لبسط نفوذهم على بلاد الإسلام للحيلولة دون انبعاث المارد الإسلامى وصحوة المسلمين على الجوهرة الثمينة التى يمتلكونها وتضمن لهم المجد والسيادة والخلود فى الدنيا وبعد الممات ألا وهى الإسلام وكتابه المقدس (القرآن) وحتى لا يظهر فى المنطقة «محمد» جديد كما عبر ابن جوريون من قبل، يقول جب: «لقد استطاع نشاطنا التعليمى والثقافى عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين ولو من غير وعى منهم أثراً يجعلهم فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد، ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار».

– ولكن ماذا عن تعليم اللغة العربية فى خطة الغزو الثقافى والتربوى والتعليمى فى حقل التعليم الوطنى؟

٥ – وماذا عن اللغة العربية؟

يقول الأستاذ المؤلف «اللغة العربية هى أكبر أهداف النظام الاستعمارى للتعليم: وذلك فقد وجهت إليها حرب عوان عن طريق مدارس الإرساليات بالانتقاص والمدرسة الوطنية بالتجاهل والثقافة بالانتقاد. وتصور هذا الدكتورة نفوسة زكريا سعيد فتقول: «كان هَمُّ الاستشراق أن يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال ليخوض المعركة مع هذا الكتاب «القرآن الكريم» الذى سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان وجعلها أمة واحدة تعد العربية لسانها وتعد تاريخ العرب تاريخها».

ويرى الأستاذ المؤلف أن الغاية البعيدة لحرب اللغة العربية من قبل الاستعمار كان إقصاء القرآن من التعليم يقول سيادته: «وقد تبين أن لا وسيلة

إلى إقصاء القرآن من الأرض المفتوحة إلا بالسيطرة على وسائل التعليم شيئا فشيئا حتى لا تتمكن الأمة من السيطرة عليه فتقيمه على طريق سَوِيٍّ يُفضي إلى نهضة صحيحة».

يتعرض السيد المؤلف بعد هذا وفى نهاية الفصل الثانى «التعليم الوطنى» ونهاية «الباب الأول» للثقافات الغازية وصراعها فيما بينها من إنجليزية وفرنسية وأمريكانية حيث يقول: «وهكذا عاش التعليم الوطنى على الصراع بين الثقافتين الفرنسية والإنجليزية ثم جاء بعد الحرب العالمية الثانية صراع بينهما وبين الثقافة الأمريكية وعاشت مصر على استعارة الأذواق والعقليات الغربية المختلفة»[1].

٦ - ماذا عن التعليم الوطنى بعد الاستقلال؟

ولكن ماذا عن واقع التعليم الوطنى الآن وبعد الاستقلال، وهل ثمة تغييرات جوهرية طرأت على التعليم الوطنى تجعله يولى وجهته شطر المشروعية العليا والمثل العليا للبلاد والعباد فى سائر أرض العالم الإسلامى؟

هذا ما يجيب عليه أُستاذنا المؤلف فى ختام هذا الباب. يقول: «والإطار كله وافد وتوضع فيه المعلومات على نحو سئ، وهو إطار قديم لم يتغير بعد الاستقلال ولا بعد انتهاء الاحتلال إلا فى جزئيات بسيطة وهو فى مجموعة لا يلتزم برسالة أو هدف.

وكان من أخطر ما فرض عليه المنهج الأمريكى الذى يطلق عليه نظرية «ديوى» وأبرز مظاهر مذهب ديوى «جون ديوى» فى التربية إبعاد الدين من مجال التربية، وكان فى الغرب يستطيع إبعاد المسيحية، وقد قصد الاستعمار إلى فرض هذا المذهب فى دراسات مدارس المعلمين العليا «كليات التربية حاليا» والتى كانت مجالا لتخريج رجال التربية فى مصر ورأى فى هذا عوضا عن

---

(١) التربية وبناء الأجيال ص: ١٠٦، ١٠٧.

الإشراف البريطانى على التعليم الذى كان يقوم به دنلوب (١٩٠٦ – ١٩١٩م) فأصبحت نظرية ديوى هى عماد المنهج التربوى بعد ذلك وكان إسماعيل القبانى حامل لواء هذه الدعوة (فى مصر) وقد أتيحت له فرصة لإنشاء معهد التربية الذى كان المكان الأول لجعل هذه النظرية فلسفة عامة للتعليم المصرى والغربى فيما بعد » [١] . واستمر هذا حتى الآن مع الأسف ...

* * *

(١) المصدر السابق ص : ١٠٧ .